مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، المجلد 28، العدد 2: 2020.
Journal of University of Babylon for Humanities, Vol.(28), No.(2): 2020.

القيصر ايفان الرابع ودوره في السياسة الروسية 1533- 1584 دراسة تاريخية

علي هادي المهداوي علي جليل جاسم

جامعة بابل / كلية التربية للعلوم الانسانية/ قسم التاريخ

hum.ali.j@uobabylon.edu.iq

معلومات البحث
تاريخ الاستلام : 24 / 12 / 2018
تاريخ قبول النشر: 18/ 4 / 2019
تاريخ النشر: 19/ 4 / 2020

الخلاصة

تعد حقبة حكم القيصر ايفان الرابع الرهيب (1533–1584) من الحقب المهمة في تاريخ روسيا الحديث، لما حفلت به من أحداث داخلية وتطورات سياسية، يأتي في مقدمتها إصلاحات القيصر الداخلية التي وضعت روسيا في مصاف الدول الكبرى، ومن هنا كان لا بد من التصدي لدراسة هذا الموضوع على الرغم من كل العقبات، لما يشكل عهد القيصر ايفان الرهيب من اهمية كبرى في تاريخ روسيا الحديث، لذا لا غرو ان تشهد روسيا تحولات مهمة في عهده .

الكلمات الدالة: القيصر، مجلس البويار، التطورات السياسية، الرهيب، الصراع، التمايز الطبقي، مجلس الأقاليم، سياسة الثأر.

The Tsar Ivan Iv and his Role in Russian Politics (1533- 1584) A Historical Study

Ali Hadi Almahdawwie Ali Jalil Jassim Mansour

Department of History/ College of Education for Humanities/University of Babylon

Abstract

The reign of Tsar Ivan IV the Terrible (1533-1584) was an important period in the modern history of Russia because of its internal events and political developments, foremost among which were the Czar's internal reforms that put Russia in the ranks of the major powers. To study this subject despite all the obstacles, what constitutes the reign of Tsar Ivan the Terrible is of great importance in the history of modern Russia, so it is not surprising that Russia witnessed important transformations in his reign.

key words: The Cesar, BOYAR Council, Political developments, Terrible, Conflict, Class differentiation, Provincial Council, Revenge Policy.

by University of Babylon is licensed under a Journal of University of Babylon for Humanities (JUBH)
Creative Commons Attribution 4.0 International License

المقدمة

روسيا نسبة للروس الذين ينتمون الى العنصر السلافي وهم مجموعة من القبائل التي سكنت اراضي اوربا الوسطى والشرقية منذ القرن الاول الميلاد في المناطق التي تمتد من جبال الكربات غرباً حتى نهر الفولغا شرقاً ومن بحر البلطيق شمالاً حتى مصب نهر الدنيبر والدانوب في البحر الاسود جنوباً ، وقد اطلق الرومان على هذه المجموعة من القبائل مصطلح السلاف وهي كلمة لاتينية تعني الرقيق ذلك لان التجار الرومان كانوا يشترون اطفال هذه القبائل، وقد حورت هذه الكلمة الى اللغة العربية الى مصطلح (الصقالية) ويرجع هؤلاء لغوياً الى الشعوب الايرانية. اما كلمة روس فقيل انها نسبة الى احدى القبائل السرماتية المسماة بالقبيلة الساطعة والتي اطلق عليها اسم Rus باللغة السريانية في القرن السادس الميلادي.اما موقعها الجغرافي فيحدها من الشمال المحيط المتجمد وشرقاً / اسيا الوسطى وجنوباً بلاد القوقاز والبحر الاسود وغرباً رومانيا والمانيا وبحر البلطيق وبولندا، كانت روسيا خلال العصور الوسطى جزءا من الامبراطورية المغولية (1240–1480) ولم تكن تشكل ايكي انسياس يواضح، وكان المذهب الارثدوكسي هو المذهب المسيحي الشائع في الاراضي الروسية التي كانت لغتها السلافية. بدأ الكيان السياسي لروسيا بالظهور من خلال (دوقية موسكو) الناشئة والتي يتضح تاريخها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر في عهد ايفان الثالث(1462–1505) الذي استطاع ان يعلن استقلاله عن الامبراطورية المغولية ليبد أنم ودولة جديدة في العالم، بعد وفاة الأمير ايفان الثالث عام1505 خلفه أبنه فاسيل الثالث (Vasili III 1505-1533) الذي يعتبر من أبرز رجال الدولة في روسيا الأقطاعية، إذ اتصف بالعبقرية والرؤيا السياسية الواسعة، فأستطاع توحيد الأمارات الروسية وازداد تعلاقات روسيا بالدول الغربية وأصبحت موسكو معروفة لدى الدول الأوربية. توفي فاسيل الثالث عام 1533وخلفه أبنه ايفان الرهيب(Ivan The Terrible 1533-1584)، إذ تم تتويجه قيصر اعلى عرش روسيا عام 1547، (ولقب بالقيصرTsar الذي أقتبس من النظام البيزنطي)، فأهتم بتطوير الجيش وتقوية المدفعية الروسية إلى درجة كبيرة. بالإضافة إلى مدافع القلاع والحصار ظهرت في الجيش الروسي مدافع الأفواج التي استعملت في الميدان، وهكذا تموضع الأساس لتشكيل الجيش الدائم في روسيا .

القيصر ايفان الرابع الرهيب (1533–1584)

ولد في الخامس عشر من آب 1530 بموسكو وقد توفي والده ولم يتجاوز عمره (3) سنوات فآلت الوصاية إلى والدته ايلينا التي قررت بدورها وضعه تحت وصاية " **مجلس البويار** "، إلا أن اعضاء المجلس استغلوا ذلك الظرف فحكموا البلاد بعبثية وسلبوا القيصر الصغير كافة الصلاحيات لا بل تجاوزوا على أبسط حقوقه في العيش الأمر الذي انعكس على سلوكه لاحقاً، وتطرقت عدد من البحوث والدراسات إلى أن فهم التطورات السياسية في روسيا ابان عهد القيصر ايفان الرابع يتطلب الوقوف على طفولته المبكرة وحياته الأسرية الخاصة، اذ تشير الدلائل إلى أن بدايات حياته المضطربة القت بظلالها السلبية على تكوين شخصيته كحاكم ودكتاتور مستبد لا يتقبل الرأي الآخر ولا يتردد في اللجوء إلى أقسى العقوبات بحق من يخالفه في الميول والرغبات، لذا اطلق عليه لقب " **الرهيب** " للدلالة على "**الشدة، الصرامة، الفضاعة، الحزم، العظمة، التسلط، قوة البأس**"، وعلى رأي البعض يعني " **الوقور، الجليل، الملاك، المُنّزل**"[1].

وبسبب تضارب المصالح أصبح مجلس البوبار طرفاً في الازمة السياسية التي شهدتها روسيا بعد وفاة فاسيلي الثالث حيث سيطر كبار المتنفذين من أسرة "**غلينسكي** " التي تنتمي اليها والدة ايفان الرابع على

شؤون المجلس، فعقدوا العزم على اقصاء كل من (يوري) و(اندريه) أخوي فاسلي عن السلطة للحيلولة دون مطالبتهما بتولي العرش، ووجهوا لهما " **تهمة التآمر** " واودعوهما السجن. ولم يمضِ شهر على اعتقالهما حتى تمت تصفية يوري في زنزانته على أيدي حراس السجن بينما أُفرج عن اندريه – أمير مقاطعة بتروفسك – مقابل اتفاق نص على "**اعتراف الأخير بالسلطة المطلقة للقيصر ايفان وعدم التدخل في المسائل الخاصة بإدارة البلاد**"، ولكن هذا الاتفاق لم يصمد طويلاً اذ اعتقد اندريه بأن المجلس تجاوز صلاحياته وانه أصبح يهيمن على إدارة الدولة بصورة مطلقة، لذا قرر التصدي للبويار الذين تلاعبوا بمقدرات روسيا، الأمر الذي حفز المجلس على مهاجمة بتروفسك حيث دارت رحى معركة غير متكافئة عند مشارف نوفغورود والتي اسفرت عن استسلام اندريه الذي وجهت إليه تهمة الخيانة العظمى فأعدم شنقاً[2].

وأثر وفاة ايلينا غلينسكي عام 1538 شهدت الساحة السياسية الروسية صراعاً عنيفاً بين الأُسر الاقطاعية للاستحواذ على المزيد من الامتيازات والتدخل المباشر في شؤون السلطة، لاسيما الصراع بين أسرتي (بيلينسكي) و(شوينسكي) حيث سعت الشخصيات المتنافسة من هاتين الاسرتين إلى التصدي لحكم البلاد نيابة عن "**القيصر الصغير** " وتحويله إلى "**قيصر صوري**" ليس له من دور سوى حضور الاحتفالات الرسمية وإلقاء الخطب[3].

ساهم تآمر البويار ومحاولاتهم السيطرة على " **الأمير الطفل** " في تحويل طفولته إلى "**جحيم**"، وحسب وصف أحد الباحثين " **لم يكن يعطف عليه أحد غير مربيته (غرافينا) وكان يحبها بشدة، لكنهم كانوا يخشون أن تصبح عائقاً في طريقهم لهذا فبعد أيام من وفاة الأم جاء الحرس ليأخذوا غرافينا بعيداً عنه، ورغم ان ايفان تشبث بها وتعلق بملابسها رافضاً مفارقتها بصراخ الا ان الحرس سحبوه بعيداً عنها واخرجوها ولم يرها بعد ذلك أبداً** ". كما أنهم وفي المناسبات العامة فقط " **كانوا يعاملون ايفان كملك ويعّرفون أنفسهم على أنهم عبيده وخدمه ويسالونه السماح لهم بالحديث، لكنهم داخل الكرملين أهانوه وسرقوا مقتنيات والده وعاملوه وأخاه بجفاء وتجاهل بل حرموه من الأكل ولم يشتروا له الملابس انما كانوا يلبسونه ملابس أولادهم القديمة، ويتذكر ايفان ان احد اولاد البويار كان يأتي غرفته ويجلس على سريره وحين يتكلم كان يرفع ساقه ويضع حذاءه على وسادة النوم** "[4].

وأوردت الروايات ان الراهب (جوزيف) وذات صباح من عام 1542 دخل مذعوراً إلى غرفة ايفان متوسلاً إليه طالباً الحماية، وكان جوزيف رئيساً للكنيسة الروسية الارثذوكسية ومن يحمل هذه الرتبة فهو الرجل الثاني في السلطة بعد القيصر، لكن صراع البويار على النفوذ في هذا الوقت الاستثنائي جعل (آل شوينسكي) يلاحقونه لقتله بسبب مناصرته لخصومهم من (آل بيلينسكي) **" فضربوا جوزيف ضرباً مبرحاً امام انظار ايفان ثم اقتادوه خارج الغرفة لتتم تصفية الحساب معه، ولكن ايفان لاذ بالصمت ولم يتمكن من فعل أي شيء متوقعاً انه سيكون التالي**"[5].

عمت الفوضى انحاء البلاد الروسية في ظل وجود العصابات المسلحة التي هددت حياة السكان الآمنين كما ساءت الإدارة وتفشت الرشوة وارتفعت الاسعار وازداد التمايز الطبقي بين الاثرياء والفقراء، وقد القى الروس بتبعة ما آلت اليه ظروف البلاد على طبقة البويار وحملوها مسؤولية تدهور الوضع الأمني واشاعة الفساد بسبب غياب سلطة القانون. والواقع ان "**القيصر الصغير**" لم يكن على دراية بالمشاكل المحدقة ببلاده ولم تكن له سلطة اتخاذ أي قرار سيادي أو ستراتيجي، فمجلس البويار وضعه تحت المراقبة المشددة حتى في علاقاته مع أصدقائه ومستشاريه. وذكرت بعض الروايات ان شكوكاً قد ساورت (اندريه شوينسكي) أحد أبرز بويار روسيا بخصوص علاقة الصداقة ما بين ايفان وشخص يدعى (فيدور فورنتزوف)، إذ افتعل

اندريه مكيدة ما وأمر رجاله بالتعدي ضرباً على فيدور وزجه في السجن، ولما رأى ايفان ما حدث لـصديقه قرر مع نفسه عدم السكوت على التجاوزات التي تعدت الحدود ومسته شخصياً فاغتنم فرصة تجمع البويار في الكرملين للاحتفال بأعياد الميلاد عام 1542 وألقى خطاباً اتهمهم فيه بتدمير البلاد والاستيلاء على ممتلكات واموال المواطنين الروس وزجهم في السجون دون أدلة بالإدانة، وأمر حراسه على الفور بالقبض على اندريه شوينسكي فانهالوا عليه ضرباً حتى الموت، ورمى جثته لتأكلها كلاب الصيد وترك ما تبقى منها ليراه البويار. كما أقدم على تصفية (30) شخص من المقربين لـ اندريه وأعدمهم جميعاً ومنذ تلك اللحظة أخذ نفوذ البويار بالانحسار، وبحلول عام 1546 تلاشى الدور السياسي لأسرتي بيلينسكي وشوينسكي وبرزت أسرة غلينسكي لتتصدر المشهد السياسي وتقف مع ايفان في إدارة البلاد حتى جاء يوم خلع الوصاية في السادس عشر من كانون الثاني 1547 وتتويجه رسمياً قيصراً على عموم روسيا[6].

ولم يمض شهر على اعتلائه العرش حتى أعلن ايفان زواجه من (انستايا رومانوف) تلك الفتاة التي عشقها بجنون وكانت أقرب زوجاته الثمانية إلى قلبه، فأنجبت منه (4) بنات توفين جميعاً وهن في المهد وولدان مات أحدهما غرقاً في عمر (3) سنوات وعاش الآخر في كنف أبيه ويدعى (فيودور)، غير ان انستايا توفيت فجأة عام 1560 وحسبما رجحته الروايات القديمة فأنها ماتت مسمومة في ظروف غامضة لم يكشف النقاب عنها. وقد أثرت حادثة الوفاة هذه على الوضع النفسي للقيصر حتى ان الشؤم والإحباط رافقاه في حياته الزوجية اللاحقة، إذ اقترن بعدها بـ(7) فتيات انتهت كل زيجة منها بقصة تراجيدية أحاطت بها الشكوك واثارت التساؤلات، ففي عام 1561 تزوج من (ماريا ميليفسكي) فأنجبت له ولداً اسماه (ڤاسيلي أو ايفان الحبيب) لكنها ماتت بالسم أيضاً عام 1569، ثم اقترن بـ(مارثا سبوكنا) عام 1571 إلا انها وجدت ميتة بالسم ولم يمض على زواجها اسبوعين فقط. وفي عام 1572 تزوج من (آنا كولتوفسكي) ولكنه هجرها بعد سنتين بسبب عدم الانجاب وفرض عليها الإقامة الجبرية في أحد الأديرة تحت اسم (داريا) حتى وفاتها عام 1626. أما الزوجة الخامسة فتدعى (آنا ڤاسيل جيكوفسكي) اقترن بها عام 1575 الا انه وبعد بضعة شهور أجبرها على الاعتكاف القسري في أحد الأديرة، وذكرت بعض الروايات أنها ماتت مقتولة بأمر من القيصر . وفي عام 1579 أُعجب ايفان بجمال ارملة احد القادة الروس وتدعى (ڤاسيليا ميلنتفسكي) لتصبح الزوجة السادسة غير أنه اكتشف خيانتها له – بعد شهرين فقط – مع أحد رجال البلاط فأمر فوراً بقتل عشيقها، وجاء بـ ڤاسيليا إلى ساحة لسباق الفروسية وقام بربطها إلى فرسين وقّطع جسدها نصفين، ثم تزوج عام 1580 من فتاة تدعى (ماريا دولغورسكي) وهي من أسرة نبيلة فقتلها ايضاً بعدما اكتشف ان لها عشيق، وأخيراً كان زواجه الثامن من (ماريا ناجيسكي) وتنتسب إلى أسرة (غودونوف) عام 1581 فأنجبت منه (ديمتري)[7].

بعد أن استعرضنا أبرز المسائل الخاصة بشخصية ايفان الرابع حسبما اقتضته هذه الدراسة سوف نتطرق إلى التطورات السياسية والعسكرية التي عاشتها روسيا أبان فترة حكمه، ففي آذار 1547 شهدت موسكو اندلاع حريق هائل طال كل شيء في المدينة بينما ظلت أسبابه مجهولة، ابتدأ بالكنيسة وانتقل إلى بقية الأبنية الحكومية وقصر الكرملين حتى وصلت النيران إلى مخازن البارود وفجرتها مما أثار الهلع والرعب لدى السكان، وخلال ست ساعات احترقت ضواحي موسكو بالكامل **" وكانت الطامة الكبرى أن لا أحد يستطيع الهرب ففر الناس إلى الكنائس الحجرية هرباً من النيران، ولكن انهارت عليهم الكنائس بسبب شدة النار أو ضغط الحشود، أعداد كبيرة قفزت في نهر موسكو ولكن غرق الكثير منهم وحينما انفجرت ذخيرة المدافع في الكرملين فان اولئك الذين اختبأوا في الأقبية ماتوا اختناقاً... وتشرد عشرات الآلاف وبقيت**

سحائب الدخان تغطي السماء عدة أيام ... وأمر القيصر بالجثث التي غصت بها الشوارع ان تلقي في النهر فغرق بسبب ذلك جزء من المدينة" هذا ما أفاد به أحد عناصر البوليس السري التابع لايفان وهو ألماني الاصل يدعى (هاينرث فون شتاديت) كشاهد عيان على الكارثة التي خلفها حريق موسكو حيث قدر أعداد الضحايا بنحو (10) آلف شخص[8].

استغلت اسرتي رومانوف وشوباسكوف حالة التذمر التي انتابت الروس على خلفية الحرائق وما تسبب عنها من دمار وخراب فعمتدا إلى اغتنام هذه الفرصة لتأجيج مشاعر الناس ضد خصومهم من أسرة غلينسكي، فبعد أيام قلائل من توقف الحريق تجمع آلاف الناقمين في ساحة الكرملين بتحريض من كبار البويار في هاتين الاسرتين ووجهوا اصابع الاتهام إلى خال القصير المدعو (يوري غلينسكي) وحملوه شخصياً مسؤولية الحادث، وازاء مشاعر الغضب التي سادت التظاهرة اضطر يوري إلى مغادرة القصر متوجهاً إلى كاتدرائية موسكو الاّ أن جماعات من المتظاهرين لاحقته وتمكنت من قتله داخل الكاتدرائية، ثم واصلت زحفها نحو باتجاه المقاطعة التي تسكنها اسرة غلينسكي مطالبة ايفان بتسليم افراد الأسرة ولكن القيصر رفض طلبهم هذا ووعدهم بتنفيذ مطالبهم المتعلقة بالإصلاحات[9].

أدرك ايفان الرابع ان الأوضاع العامة في البلاد أصبحت تنذر بالخطر لاسيما بعد حريق موسكو، وكان عليه استعادة زمام السلطة بقبضة حديدية للقضاء على مظاهر الفوضى خاصة وان الاحتجاجات لم تقتصر على موسكو فقط بل امتدت إلى أقاليم روسية أخرى مطالبة بالإصلاحات، فامر بالقبض على قادة التظاهرات الذين تسببوا في قتل خاله اندريه وأعدمهم جميعاً وترك جثثهم معلقة على الأعمدة ثلاثة أيام[10].

ابتدأت عملية الاصلاح التي خطط لها ايفان الرابع بتأسيس ما يعرف بـــ "**المجلس المختار أو مجلس الاقاليم** " بناء على اقتراح تقدمت به بعض الشخصيات التي كان يثق بها وهم المطران (ماكاريف)، الأب (سلفستر) و(الكسي داشيف)، وذلك بهدف انقاذ البلاد من أزماتها الداخلية وإعادة النظر في المسائل المتعلقة بالدفاع عن الاراضي الروسية بعدما اتسعت أطماع القوى المجاورة، وتشكل المجلس برئاسة القيصر وممثلين عن جميع مدن وأقاليم روسيا إضافة إلى كبار رجال الدولة وقادة الجيش ورجال دين وكبار طبقتي البويار والدوقريان. عقد المجلس الذي يعد أول "**جمعية وطنية**" تضم ممثلين من جميع انحاء روسيا اجتماعه الأول في ايلول 1549 وقد ارتأى القيصر ان تجري وقائع هذا الاجتماع في ساحة الكرملين بحضور عامة الناس، فألقى كلمة استعرض فيها خطورة الاوضاع التي كانت تمر بها البلاد على الصعيدين الداخلي والخارجي موجها الاتهام في الوقت ذاته إلى رجال البويار وحمّلهم مسؤولية سفك الدماء وانتشار الفساد في المؤسسات الحكومية، محذراً خصومه من مغبة الاستمرار في إثارة المشاكل والأزمات متوعداً اياهم بإنزال اقسى العقوبات، كما بين في خطابه انه سيسعى لحماية مصالح شعبه وهو على استعداد لسماع اية اعتراضات أو انتقادات من خلال "**الديوان القيصري**"، ودعا جميع شرائح المجتمع إلى التسامح والمصالحة وتوحيد الصفوف لتهيئة ارضية مناسبة تسمح بتشريع قوانين جديدة تساهم في بناء دولة روسية حديثة[11].

وأوضحت إحدى الدراسات ان القيصر ايفان الرابع قد تبنى فكرة مجلس الأقاليم لأجل تحقيق عدد من الأهداف الستراتيجية اهمها[12]:

أولاً– حجب جميع الصلاحيات التي يتمتع بها البويار وكبار رجال الدين وحصر جميع السلطات بيد القيصر.

ثانياً– محاربة الفساد ومحاسبة الموظفين المقصرين ومنع القائمين على الجبايات من سرقة المال العام.

ثالثاً– اقامة حكومة مركزية تخضع لها جميع الأقاليم الروسية، وقطع الطريق أمام أية محاولة للأمراء بالاستقلال عن موسكو.

رابعاً– اخضاع التعليم في جميع أنحاء روسيا إلى اشراف حكومي مركزي وتأسيس مدارس مدنية حديثة بعيداً عن تأثيرات الكنيسة لمواكبة التطورات العلمية والارتقاء بالثقافة عل غرار ما حصل في دول اوربا الغربية.

خامساً– تعزيز قوة الدولة اقتصادياً وعسكرياً بمواكبة التطور الحاصل في مجال الصناعات المدنية والحربية.

شهدت روسيا حملة اصلاحات شاملة ركزت في أهدافها على النهوض بأداء المفاصل الرئيسية للدولة، ففي الجانب الاداري تم الغاء نظام الادارة القديم القائم على أساس الاقطاع واعتماد نظام حكم مركزي تخضع له جميع الاقاليم الروسية تحت سلطة القيصر، فإدارة الاقاليم ينبغي ان تستند إلى قاعدة الانتخاب والشخص المنتخب هو موظف مُلزم بتنفيذ كافة الاوامر الصادرة من رأس الهرم في السلطة العليا بموسكو مقابل أجر أو مُرّتب مالي تقرره الحكومة، ولأجل الوصول إلى هذا الهدف اقتضت الضرورة اعادة النظر في النظام القضائي ليصبح أكثر مركزية وذلك باقرار تشريعات جديدة تعمل على تحجيم دور السلطات المحلية ومنح الهيئات المركزية سلطات واسعة[13].

وأولى ايفان الرابع اصلاح المؤسسة العسكرية اهتماماً استثنائياً فالتهديدات المستمرة التي كانت تتعرض لها الأراضي الروسية من قبل القوى المجاورة اضافة إلى حاجة روسيا لمنفذ تجاري يربطها بالعالم الخارجي حفزته على ادخال التحديث لهذه المؤسسة حيث تجلى ذلك بما يأتي[14]:

أولاً– اعداد الخطط العسكرية بما يؤمن مواجهة التحديات المحدقة بـ روسيا والاستفادة من خبرات كبار القادة العسكريين في اقامة التحصينات الدفاعية وانشاء القلاع وابراج المراقبة الحدودية.

ثانياً– تعزيز الجيش الروسي بتشكيلات جديدة من " **رماة البنادق** " أو قوات الاحتياط وفقاً لنظام تدريبي خاص من حيث الاعداد البدني والتأهيل القتالي، إذ بلغ عدد الذين انضووا في تلك التشكيلات نحو (250) ألف مقاتل كان يتم استدعاؤهم للخدمة في أوقات الحرب.

ثالثاً– تشكيل قوة مقاتلة من الدوقريان باسم " **فصيل الالف مقاتل** " ويتمتع كل شخص في هذه القوة بامتياز استغلال قطعة أرض زراعية مساحتها (50) هكتار مقابل الخدمات التي يقدمها ولكن لا يحق له التملك أو التصرف فيها بسبب عائديتها للدولة.

رابعاً– اعتقد القيصر ايفان الرابع ان المواجهة مع خصومه ومعارضيه في الداخل كانت تتطلب وجود قوة عسكرية خاصة تدين بالولاء له شخصياً فأسس فرقتين قتاليتين خضعتا لإشرافه المباشر هما " **فرقة القوزاق** " وفرقة مشاة "**استرلتس**"، وأمر بتسليحهما بأحدث الأسلحة المصنعة آنذاك.

خامساً– تحديث سلاح المدفعية والاستعانة بالخبراء الأجانب من ذوي الاختصاص في مجال تصنيع المدافع وتطوير مدياتها.

طالت الاصلاحات أيضاً المؤسسة الدينية إذ تأثر ايفان الرابع بحركة الاصلاح الديني التي شهدتها المانيا، وسعى جاهداً إلى تهميش دور الكنيسة في الأمور السياسية للحيلولة دون تدخل رجال الدين في الشأن السياسي وذلك من خلال[15]:

أولاً– تحجيم الامكانيات المادية للكنيسة ومصادرة جميع الاملاك التابعة لها واعتبارها املاكا عامة لرفد خزينة الدولة بأموال اضافية، إذ قدم القيصر في نيسان 1550 اقتراحاً إلى مجلس الاقاليم بهذا الخصوص الا

ان المجلس وبأغلبية الاعضاء رفض الاقتراح، الأمر الذي اضطر ايفان إلى مصادرة جميع الاراضي المنقولة للكنيسة ابان فترة وصايته حينما كان قاصراً.

ثانياً- الحد من ظاهرة تجاوز الأديرة على الأملاك العامة حيث أصدر القيصر عام 1551 امراً منع بموجبه القائمين على تلك الأديرة من حيازة اية مساحة من الارض الاّ بموافقته شخصياً.

ثالثاً- التأكيد على الدور الحقيقي الذي ينبغي ان يضطلع به رجل الدين في مجال العبادات وممارسة الطقوس الدينية والابتعاد عن الشبهات واعمال الرذيلة، فقد شدد القيصر على ضرورة اصلاح سلوكيات رجال الدين والتزامهم بالمنهج المسيحي السليم وتجسيد الاخلاق الفاضلة واحالة الفاسدين منهم إلى القضاء.

رابعاً- تأسيس "**المجمع الكنسي**" بهدف تشخيص المفاسد التي استشرت في الكنيسة الأرثذوكسية ووضع الحلول المناسبة لمعالجتها ومعاقبة المفسدين.

خامساً- جمع التعاليم الدينية في كتاب واحد احتوى على (100) فصل ليكون دستوراً للنظام الكنسي الروسي، وبذلك أراد القيصر قطع الطرق بوجه الفاسدين من رجال الدين واستغلالهم للناس البسطاء في ممارسة الطقوس والعبادات.

قادت سلسلة الاصلاحات الداخلية التي قام بها ايفان الرابع إلى تعزيز سلطته واخضاع خصومه ومناوئيه من أمراء البويار وكبار رجال الكنيسة، الأمر الذي أتاح له فرصة حقيقية لإعادة النظر في الحسابات الخاصة بالشأن الخارجي والانتقال من حالة الدفاع إلى الهجوم، فقد نالت خططه المتضمنة اخضاع الامارات التترية في حوض نهر الفولغا الشرقي (قازان واسترخان) تأييد أعضاء مجلس الأقاليم لاعتبارات ستراتيجية وسياسية واقتصادية[16]:

أولاً- فرض السيطرة على كامل مجرى نهر الفولغا كونه خط تجاري نهري ستراتيجي يؤمن لروسيا الاستفادة القصوى من العلاقات التجارية مع البلدان الشرقية والاسيوية، ذلك ان منابع الفولغا تقع في المناطق الروسية الشمالية الغربية حيث يتجه النهر في مساره نحو الشرق مروراً بإمارة قازان ثم ينعطف جنوباً ويخترق وسط مدينة أسترخان الواقعة على دلتا مصبه في بحر قزوين.

ثانياً- تدني الواردات الزراعية بسبب موجة الجاف التي اجتاحت روسيا منذ عام 1547 لاسيما في الأجزاء الشمالية الشرقية مما تطلب القيام بضم المزيد من الأراضي عن طريق التوسع لتعويض الخسائر الكبيرة الناجمة عن ذلك.

ثالثاً- العمل على تجسيد المشروع الكنسي الروسي بجعل موسكو "**روما الثالثة**" والسعي لتأسيس إمبراطورية أرثذوكسية عالمية تتزعم العالم المسيحي الأرثذوكسي لاسيما بعد سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين عام 1453.

رابعاً- الاستفادة من خبرات القادة والمقاتلين التتار الذين لجأوا إلى موسكو بسبب انشقاقهم عن السلطة التترية، خاصة وان أعداد كبيرة من هؤلاء اعتنقوا المسيحية وأبدوا الرغبة بالخدمة في الجيش الروسي فشكلوا ما يعرف بـ"**الجيش القوزاقي**" الذي قاتل تحت إمرة القادة الروس وخاض حروباً عديدة ضد القوى المعادية لروسيا في مختلف الجبهات ومنها الامارات التترية.

خامساً- اتساع نطاق المعاملات التجارية ما بين روسيا وبعض الامارات التتارية لاسيما امارتي قازان واسترخان مما اوجد فئات واسعة من أصحاب المصالح والتجار ادانت بالولاء لموسكو في وقت تمكن فيه الروس من استمالة (الخان علي) حاكم امارة (قاسيموف) وتعزيز أواصر الصداقة والتعاون معه.

سادساً– احتدام الصراع بين البويار على إعادة توزيع الملكيات الزراعية الأمر الذي حفز كبار الاقطاعيين على التفكير في التوسع بالأقسام الشرقية والجنوبية من حوض نهر الغولغا.

سابعاً– الحد من الخروقات التترية للأراضي الروسية من جهة قازان والتي اثرت سلباً على الاقتصاد الروسي.

ثامناً– انتهاز حالة الصراع على السلطة ما بين الجماعات الاقطاعية المتنافسة في قازان وما نجم عن ذلك من فوضى عارمة لتوسيع نفوذ روسيا في هذه الامارة.

قادت الجماعات الموالية لموسكو في امارة قازان انقلاباً سياسياً عام 1546 الأمر الذي أجبر الخان (صافي) على الهرب إلى إمارة (نوغاي) التترية في منطقة الاورال، وتدخل الروس بصورة مباشرة فعينوا على رأس الامارة حليفهم الخان علي ولكن الخان صافي وبعد مضي بضعة شهور استطاع العودة إلى قازان بفضل الدعم العسكري الذي تلقاه من خان امارة نوغاي، فخاض صراعاً عنيفاً مع مناوئيه وكبدهم خسائر كبيرة مما اضطر منافسيه من الامراء التتر ومنهم الخان علي إلى الهرب باتجاه الحدود الروسية حيث جرى الاتفاق مع ايفان الرابع على التخطيط لمهاجمة قازان . ففي خريف عام 1551 سار القيصر على رأس جيش قوامه نحو (100) ألف مقاتل بمشاركة جميع الفصائل التترية المنشقة ودارت رحى معركة طاحنة عند ضفاف نهر الفولغا ولكنها انتهت ميدانياً بهزيمة قاسية للروس وحلفائهم، ورغم مرارة الهزيمة الا ان القيصر ايفان الرابع استغل حالة الارتباك التي حدثت في صفوف التتر أثر مقتل القائد العسكري (كوجاك) فأمر قادته بمواصلة التقدم ومحاصرة قازان، ونتيجة للحصار المحكم الذي استمر خمسة شهور ساءت الاوضاع الداخلية في قازان وتشكلت حكومة مؤقتة لغرض الشروع بالتفاوض مع القيصر ولكن الاخير اشترط تسليم الخان (اوتيامش) الصغير بالسن ووالدته (سييوم بيكه)، وقد انتهت المفاوضات بالموافقة على فك الحصار مقابل تسليم الخان الصغير وأمه، ثم قام ايفان بتسليم سييوم إلى حليفه علي خان فتزوجها فيما ارسل ابنها إلى موسكو وبقي فيها حتى وفاته عام1566[17].

ولأجل حسم مصير قازان قرر ايفان الرابع عام 1552 احتلالها بصورة نهائية لكنه وقبل الشروع بالإجراء العسكري ارتأى اللجوء إلى الحل الدبلوماسي المتضمن الطلب من الحكومة المؤقتة اعلان انضمام الامارة إلى الدولة الروسية، الا أن "**النخبة العليا**" في قازان انقسمت ما بين **" أقلية مؤيدة"** ويمثلها التجار وأصحاب المصالح المالية قررت الدفاع عن قازان والاتصال بالأمير (باديغار) أحد امراء**"وأغلبية رافضة "** استرخان والمقيم في امارة (نوغاي) التترية لتولي عرش قازان والاشراف على عملية الدفاع عنها، كما اعرب سكان الامارة عن رفضهم القاطع للتدخل الروسي في تنصيب أي حاكم رغم ادراكهم لعدم امكانية مجابهة القوة العسكرية الروسية. وقد سارع الجناح المعارض لروسيا بإجراء اتصالات عاجلة مع حاكم امارة القرم التترية (الخان دولت) بهدف الحصول على الدعم العسكري فاستجاب الخان على الفور وأرسل جيشاً لمهاجمة المدن الروسية الجنوبية، ونجح هذا الجيش في تحقيق انتصارات محدودة وحاصر مدينة (تولا) غير ان الحامية الروسية المكلفة بالدفاع عن المدينة تمكنت من صد الهجوم وأجبرت القوات المهاجمة على التراجع والانسحاب إلى القرم. واثر ذلك شرعت القوات الروسية بقيادة ايفان الرابع في الثاني عشر من تشرين الاول 1552 بالزحف نحو قازان وحاصرتها لمدة (90) يوم ثم دخلتها دون مقاومة تذكر[18]. ان الانهيار السريع للمقاومة القازانية ارتبط بعدد من الاسباب كان ابرزها[19]:

أولاً– التفوق العددي للجيش الروسي الذي قدر بـ(150) ألف مقاتل مقابل قوة مدافعة لا يتجاوز عددها (30) ألف مقاتل.

ثانياً– تفوق الروس في مجال التسليح وبخاصة سلاح المدفعية.
ثالثاً– الخطة العسكرية المحكمة التي استندت إلى مشاغلة المدافعين وتكبيدهم الخسائر الفادحة وكذلك اقامة الابراج عند اسوار المدينة.
رابعاً– قطع جميع الطرق المؤدية إلى مصادر المياه مما اذهل السكان وجعلهم يعيشون محنة حقيقية في تأمين احتياجهم من الماء.

وبعد مفاوضات " **شكلية** " عاجلة وافق القازانيون على تعيين حاكم يدعى (شيخ علي شيكالي) وهو من الموالين للروس وبذلك فقدت قازان استقلالها السياسي، ورغم ان ايفان الرابع قد سمح بالإبقاء على الدين والقومية والمعتقد الا أن قوى المقاومة لم تستسلم بصورة نهائية حيث تبنت مشروعاً للتخلص من السيطرة الروسية وخاضت صراعاً عنيفاً ضد الروس استمر نحو (5) سنوات. كان لسقوط قازان انعكاسات مهمة على صعيد ستراتيجية التوسع الروسي إذ توجهت أنظار الروس نحو احكام السيطرة على منطقة الحوض الشرقي لنهر الفولغا، فشرعوا بإقامة التحصينات الدفاعية على ضفتي النهر وشيدوا عشرات القلاع العسكرية المحصنة في عمق الأراضي الواقعة على ضفته الشرقية، هذا وقد أحكم الروس في عام 1556 سيطرتهم على كامل مجرى نهر الفولغا من منبعه في عمق الاراضي الروسية الشمالية الغربية إلى مصبه في بحر قزوين بعدما تمكن الجيش الروسي من فصل امارة استراخان عن امارة (توغاي) التترية، ومن ثم احتلال استراخان بالتنسيق مع الفصائل الموالية لروسيا، وبذلك امتد نفوذ الروس إلى بحر الخزر وفُتح الطريق أمامهم لإقامة علاقات تجارية مع بلاد فارس، وفي العام ذاته تعزز النفوذ الروسي في منطقة الأورال حينما أبدت إمارة (توغاي) الرغبة بالانضمام إلى الدولة الروسية[20].

قررت إمارة سيبريا التترية عام 1557 تطبيع علاقاتها السياسية والاقتصادية مع موسكو وفقاً لأسس الصداقة وحسن الجوار، فأرسلت وفداً تفاوضياً ولكن هذا الوفد فشل في المهمة التي ذهب من أجلها واذعن للشرط الروسي المتضمن دفع الاتاوة السنوية، وبذلك فتح الطريق امام الروس للتوسع شرقاً فيما وراء جبال الأورال وخاصة في الاقسام الغربية والجنوبية من الاراضي السيبيرية[21].

ويبدو ممكنا القول ان ستراتيجية التوسع الروسي في سيبريا استندت إلى مقومات اساسية كان أهمها مسالة التحديث الذي طرأ على نوعية التسليح لاسيما سلاح المدفعية، وضعف قوة التتار بسبب الصراعات الداخلية التي أدت إلى تفكيكهم سياسياً، فضلاً عن تنامي الشعور بالكراهية لدى سكان تلك المناطق ورفضهم البقاء تحت السلطة التترية. وتجدر الاشارة إلى ان بدايات التواجد الروسي في سيبريا تعود إلى أواخر النصف الأول من القرن السادس عشر حينما قرر بعض الاثرياء الروس استثمار أموالهم في تلك المنطقة رغم كونها نائية وبعيدة، اذ اقترحوا على ايفان الرابع تشجيع المزارعين على الهجرة واستغلالها زراعياً كما طالبوه بتشكيل فصائل مسلحة بهدف تعزيز تواجدهم هناك خاصة وان المنطقة لا يقطنها سوى ألف من القوزاق الذين فرضوا سيطرتهم بعدما طردوا الحاكم التتري (كتشو)، ولاقت هذه الفكرة ترحيب القيصر فأمر بإرسال قوات عسكرية إلى هناك وشجع على الهجرة وبذلك شرع الروس ببناء المستوطنات والمدن الصغيرة مثل توبولسك، تيومن وناريم[22].

ورغم النجاحات التي حققها الروس في سيبريا الا ان روسيا وبعدما أصبحت دولة كبيرة ولها امكانياتها الواسعة كانت بحاجة ماسة لفتح قنوات التبادل التجاري والاقتصادي مع الغرب، ولكن عدم امتلاكها لإطلالة بحرية تربطها بالعالم الخارجي – باستثناء نهر (نيڤا) وهو منفذ صغير يوصلها إلى بحر البلطيق – حال دون ذلك، هذا اذا ما أضفنا أن جميع الدول الليفونية – هو مصطلح أطلق على دول البلطيق المتمثلة

باسقفيات آزلويك، ريكار، كورليان، فرسان الليفونية– قد سعت من جانبها إلى قطع الطريق أمام اية محاولة روسية لبلوغ ذلك البحر، لذا قرر ايفان الرابع الدخول في مفاوضات مع الليفونيين بهدف الوصول إلى تفاهم مشترك يفضي إلى تأمين الاتصال بالغرب الا ان المفاوضات فشلت بسبب اصرار الوفد الليفوني على الشرط الخاص بدفع الجزية، حينذاك أدرك القيصر ان التعاطي مع هذه المسألة يستوجب اللجوء إلى القوة فاعلن الحرب في (كانون الثاني 1557) [23].

استندت خطة الهجوم الروسي على الاراضي الليفونية خلال الصفحة الأولى من الحرب إلى مبدأين (الأول): تجنب القتال داخل المدن الكبيرة وعدم الانجرار إلى ما يعرف بـ " **حرب العصابات** "، و(الثاني): استمالة السكان الناقمين بسبب سوء اوضاعهم المعيشية لاسيما وان أعداداً كبيرة منهم ينحدرون من اصول روسية، وحينما بدأت الحرب أحرز الروس تقدماً سريعاً باجتيازهم للحدود الليفونية فاخضعوا نحو (20) مدينة صغيرة إلى سيطرتهم كما استولوا على (يوريف) وهي من المدن المحصنة وفيها نحو (50) مدفع وتم الحاق جميع هذه الاراضي بالدولة الروسية، ولأجل ضمان ولاء سكان تلك المناطق والحيلولة دون اثارتهم للمشاكل اصدر ايفان الرابع اوامره إلى الجيش بتوخي جانب الحذر وعدم الاساءة لأحد باستثناء اولئك الذين يقومون بأعمال استفزازية، وأمر ايضا بإعادة النظر في النظم الادارية والتجارية واعفاء التجار من جميع الضرائب المترتبة على التبادل التجاري مع بقية اقاليم روسيا. قادت الانتصارات العسكرية السريعة والمتلاحقة إلى تعزيز التواجد الروسي في جزء كبير من شاطئ البلطيق الشرقي مما اثار حفيظة عدد من الدول الاوربية مثل السويد والدنمارك وليتوانيا وبولندا، إذ أدركت هذه الدول ان اختراق الروس للأراضي الليفونية سوف يهدد مصالحها لذا سارعت بولندا إلى احتلال جزيرة (كولنيان) واقدمت الدنمارك على غزو جزيرة (ايزك) بينما قامت السويد بضم بعض الاراضي وبذلك ثم تفتيت ما يعرف بـ "**الاتحاد الليفوني**"، وفي الوقت ذاته حاولت تلك الدول ترك الخلافات القائمة بينها جانبا لمواجهة الخطر الروسي فتجددت الاعمال العسكرية في منطقة البلطيق ثانية، ولكن القوات الروسية تمكنت من صد هجمات القوى المتحالفة واستولت عام 1563 على مدينة (بولستك) الستراتيجية فيما سعى ايفان الرابع إلى تفتيت التحالف بعقده معاهدة مع السويد[24].

وبينما كان الجيش الروسي يحرز تقدماً في الجبهة الليفونية فان سجالات مثيرة شهدتها الساحة السياسية الروسية بخصوص مسألة " **الحكم المطلق** " إذ أحدثت الأفكار التي جاء بها المفكر (سفيتيف) جدلاً واسعاً بقوله: " **ان القيصر باعتباره رأس الهرم في السلطة وبحكم تفويض الشعب له فهو الحاكم مدى الحياة** "، كما وجه انتقاداته اللاذعة إلى البويار وطالب الدوقريان بمواجهة الاقطاع. وذكرت احدى الدراسات ان سفيتيف قد اطلع ايفان الرابع على هذه الآراء وحثه على ترسيخ مبادئ الحكم المطلق لاسيما وان اكثرية البويار أصبحوا في تقاطع تام مع السياسات التي ينتهجها القيصر كونها تمس بمصالحهم الخاصة، واشارت ايضاً إلى ان هذه السجالات الفكرية القت بظلالها السلبية على المشهدين العسكري والسياسي، فعلى صعيد الحرب قادت التناحرات الداخلية إلى فقدان الروس لعدد من المواقع في جبهات القتال، أما على الصعيد السياسي فان ايفان الرابع حمّل البويار مسؤولية تدهور الأوضاع داخلياً وخارجياً حتى وصل به الأمر إلى مغادرة مقره في الكرملين والاقامة في احدى المدن الصغيرة التي تبعد عن العاصمة بنحو (40) كم معلناً تنازله عن العرش، ولتلافي حدوث المزيد من الانهيارات والاضطرابات وللحيلولة دون الانفلات الشامل للأوضاع في عموم روسيا التقى وفد من اهالي موسكو في السادس عشر من كانون الاول 1564 بالقيصر واقنعوه بالعدول عن قراره لما فيه مصلحة البلاد، الا ان ايفان اقرن عودته بتفويض عام يستند إلى مسألتين

(الاولى): منحه السلطات المطلقة التي تمكنه من الهيمنة التامة على اجهزة الدولة، و(الثانية): تأسيس بلاط خاص واسع الصلاحيات يرتبط مباشرة بالقيصر[25].

تجسدت الخطوة الأولى التي أقدم عليها ايفان الرابع بتأسيس "**الاوبرتشينيا**" وهو جهاز " **بوليسي – سياسي** " بلغ عدد منتسبيه نحو (6) آلاف مقاتل وكانت مهمته تصفية الخصوم والمعارضين، ففي عام 1566 تقدم نحو (300) من البويار بطلب لمقابلة القيصر في محاولة لثنيه عن الاستمرار بسياسة الاغتيالات والاعدامات التي طالت عدد غير قليل منهم على ايدي عناصر هذا الجهاز، ولكن ايفان رفض مقابلتهم وأصدر أمراً باعتقالهم جميعاً مما اثار غضب واستياء مطران الكنيسة الأرثذوكسية (فيليب) الذي واجه هو الآخر عقوبة الاعدام بسبب شجبه لهذه السياسة، والواقع ان عامة الروس لم يبدو احتجاجاً على اجراءات القيصر طالما كانت تستهدف البويار. وفي قرار مفاجئ أقدم القيصر ايفان على حل جهاز الاوبرتشينيا والحاق عناصره بالوحدات العسكرية وذلك اثر الحريق الذي التهم نوفغورود في تموز 1570، معتقداً بأن أعمال النهب التي طالت الاموال العامة في المدينة المنكوبة من قبل عناصر الجهاز تمثل بداية لاستفحال قوة هذه العناصر وازدياد خطرها المستقبلي[26].

مما تقدم يتضح ان سياسة الثأر والمعارضة بين القيصر وخصومه البويار قد أثرت سلباً على استقرار الوضع الداخلي في وقت لازالت فيه روسيا تخوض الحرب ضد القوى المعادية في جبهة البلطيق، فالخسائر الكبيرة التي اقترنت بمتطلبات القتال ساهمت في استنزاف خزينة الدولة في ظل تراجع الواردات، الأمر الذي حفز تلك القوى على استئناف الحرب مرة أخرى في مايس 1579 حيث تخلى ملك السويد عن المعاهدة التي سبق وان عقدها مع القيصر الروسي واتفق مع ملك بولندا على طرد القوات الروسية المرابطة في الاراضي الليفونية[27].

شرعت القوات البولندية والسويدية تحت قيادة الملك البولندي (ستيفن) بالهجوم على مدينة بسكوف من محورين غير أنها لم تتمكن من اقتحام المدينة بسبب المقاومة العنيفة التي أبدتها الحامية الروسية ورفضها الاستسلام، حينها أدرك القيصر ان مشاكل بلاده السياسية والاقتصادية توجب تفادي الانزلاق نحو هزيمة عسكرية مؤكدة لذا طلب وساطة البابا وتدخله الشخصي لوقف القتال، استجاب البابا لمناشدة القيصر فارسل مندوبا عنه يدعى (انطونيو) حيث تمخضت جهود الوساطة عن موافقة البولنديين والسويديين على توقيع هدنة لمدة (10) سنوات شرط قيام الروس بسحب قواتهم من الاراضي الليفونية مع ضمان احتفاظ روسيا بالأراضي الواقعة على طول الحدود الليتوانية، بيد أن هذه الهدنة لم تصمد طويلاً إذ تقدمت القوات البولندية والسويدية واجتازت الحدود الروسية في شباط 1582 ثم واصلت زحفها نحو موسكو، ولكن القائد الروسي المكلف بحماية العاصمة أفشل هذا الهجوم حينما باغت الجيوش المهاجمة بتفجير مخابئ العتاد المدفونة تحت الاسوار مما أحدث صدمة مفاجئة لدى المهاجمين الذين اضطروا للتراجع بعد ان تكبدوا خسائر بلغت نحو (1700) قتيل وجريح[28].

اعتقد القيصر الروسي ان وضع نهاية للحرب الليفونية التي استمرت نحو (25) عاماً أصبحت ضرورة ملحة أملتها المشاكل التي كانت تعصف بالبلاد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، مدركاً في الوقت ذاته "**أهمية تسوية الصراع مع القوى المجاورة وعدم الخوض في مغامرات جديدة غير محسوبة النتائج حتى ان اضطر إلى تقديم بعض التنازلات**". وفي مايس 1582 ابدا الروس الرغبة في إنهاء حالة الحرب وشرعوا بالتفاوض مع البولنديين والسويديين لعقد الصلح حيث تعهدت روسيا بالانسحاب من جميع الاراضي البولندية

مقابل تخلي بولندا عن الأراضي الروسية التي احتلتها خلال الحرب، كما تنازلت عن المنفذ البحري " **الصغير والوحيد** " الذي يربطها ببحر البلطيق إلى السويد[29].

القى ايفان الرابع بمسؤولية هذه " **الهزيمة أو التسوية المخزية** " على قادة الجيش واتهمهم " **بالخيانة العظمى وعقوبتها الموت**" في محاولة لتبرير موقفه من القبول بالشروط التي تضمنها الصلح، وورد في الروايات القديمة أنه " **أصيب بالهستيريا وراح يتصرف بسلوك غير معتاد حيث توجه إلى مدينة بسكوف لإبادة سكانها ... فتصدى له أحد القساوسة ويدعى (ميخولا) قائلاً: ايفان .. ايفان كم أرقت من دماء الابرياء، عُد إلى دارك والاّ ستصيبك مصيبة كبيرة... ثم ناوله قطعة لحم فقال القيصر: انا مسيحي ولا آكل اللحم اثناء الصوم، فرد عليه ميخولا: انت تفعل الأسوء لأنك تأكل لحم البشر ونسيت ليس الصوم لوحده ... انت نسيت حتى الرب!!!** " [30].

عاش القيصر ايفان الرابع أواخر حياته في وضع مأساوي إذ عانى من احباط نفسي وصراع مع الذات بسبب قتله ابنه (فاسيلي) اثر مشادة كلامية بينهما مما أفقده صوابه في كثير من المواقف التي كانت تتطلب الحكمة في " **اتخاذ القرار**"، وفي أواخر عام 1583 أصيب بمرض جلدي خطير تسبب في ورم جسمه وانبعاث الروائح النتنة نتيجة التقرحات، وفارق الحياة في الثاني عشر من اذار 1584 اثناء لعبه الشطرنج مع صديقه الاقطاعي (بوريس غودونوف)، وبذلك طويت صفحة مهمة في تاريخ الدولة الروسية وخلفه على العرش ابنه المُعتل (فيودور)[31].

الخاتمة

عانت روسيا القيصرية شأنها شان بلدان أوربا الأخرى من مشكلة وراثة العرش وادعاء الأخوة غير الأشقاء بأحقية كل منهم العرش، حيث ولد **ايفان الرابع** في الخامس عشر من آب 1530 بموسكو وقد توفي والده ولم يتجاوز عمره (3) سنوات فآلت الوصاية إلى والدته ايلينا التي قررت بدورها وضعه تحت وصاية " **مجلس البويار** "، إلا أن اعضاء المجلس استغلوا ذلك الظرف فحكموا البلاد بعبثية وسلبوا القيصر الصغير كافة الصلاحيات، الأمر الذي انعكس على سلوكه لاحقاً، لاسيما القت بظلالها السلبية على تكوين شخصيته كحاكم ودكتاتور مستبد لا يتقبل الرأي الآخر ولا يتردد في اللجوء إلى أقسى العقوبات بحق من يخالفه في الميول والرغبات، لذا اطلق عليه لقب " **الرهيب** " للدلالة على "**الشدة، الصرامة، الفضاعة، الحزم، العظمة، التسلط، قوة البأس**"، وعلى رأي البعض يعني " **الوقور، الجليل، الملاك، المُنّزل** .

أحدثت سياسة " **الانفتاح الخارجي** " في عهد القيصر فاسيلي الثالث (1505–1533) انتقالة مهمة ساهمت في توطيد عرى الصداقة سياسياً واقتصادياً مع دول اوربا وذلك بتبادل الزيارات الرسمية وارسال البعثات التجارية. كما اثبتت سياسة الاصلاح التي تبناها القيصر ايفان الرابع (1553–1584) نجاحها في بناء نظام مركزي ساهم في تعزيز قوة الدولة، الامر الذي مكن الروس من مواجهة مطامع قوى الجوار ولاسيما دول التحالف الليفوني بعد ان قادت سلسلة الاصلاحات الداخلية التي قام بها ايفان الرابع إلى تعزيز سلطته واخضاع خصومه ومناوئيه من أمراء البويار وكبار رجال الكنيسة، الأمر الذي أتاح له فرصة حقيقية لإعادة النظر في الحسابات الخاصة بالشأن الخارجي والانتقال من حالة الدفاع إلى الهجوم، لاسيما فرض السيطرة على كامل مجرى نهر الفولغا كونه خط تجاري نهري ستراتيجي يؤمن لروسيا الاستفادة القصوى من العلاقات التجارية مع البلدان الشرقية والاسيوية.

كما تطلب القيام بضم المزيد من الأراضي عن طريق التوسع لتعويض الخسائر الكبيرة الناجمة عن تـــدني الواردات الزراعية بسبب الجفاف الذي اجتاح روسيا.

قادت التناحرات الداخلية إلى فقدان الروس لعدد من المواقع في جبهات القتال، أما على الصعيد الـــسياسي فان ايفان الرابع حمّل البويار مسؤولية تدهور الأوضاع داخلياً وخارجياً. لاسيما الهزائم وفقـــدان الأراضـــي الذي سيطرت عليها روسيا . حتى عاش القيصر ايفان الرابع أواخر حياته في وضع مأساوي ، وفارق الحيـــاة في الثاني عشر من اذار 1584.

هوامش البحث

(1) للتفاصيل ينظر: موسنييه، رولان: تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف السعد، المجلد الرابع، (بيروت، 1966)، ص174؛ زيباري، ايفان: التاريخ والمؤرخون وحقيقة ايفان الرهيب نقلاً عن؛ www.alfiker.com.، مراد، مصطفى: ايفان الرابع نقلاً عن؛ www.maghress.com؛ نافع، ضياء: لماذا سمي بالرهيب؟ نقلاً عن؛ www.almadapaper.net.

(2)Eloy ; Maueen ; The Colonial Empires , (Paris, 1953), p. 81.

(3) فؤاد، محمد: ايفان الرهيب قيصر روسيا، مجلة المعرفة، المجلد الثالث، (بيروت، 1979)، ص384؛ Breet,op.cit,P.147,Harbuth,op.cit,p.122.

(4)البياتي، ميسون: دراسات وأبحاث في التاريخ والتراث واللغات نقلاً عن؛www.alhewar.org

(5) المصدر نفسه.

(6) ماداریاغا، ایزابیل: شخصيات لها تاريخ (ايفان الرهيب) نقلاً عن؛ www. kenana.fromegypt.net؛ فاروق، وليد سلمان أغا، روسيا العظمى ،(د.م،1919)، ص138.

(7)عبد الغني، احمد جمال، البلاط القيصري الروسي (دسائس ومؤمرات)، (دمشق، 1931)، ص105-109؛ Eloy, op. cit, pp. 99-101 ; www. kabbas. Com.

(8)الحميد، سعد عبدالله : معركة موسكو، نقلاً عن؛ www.alukah.net.

(9) Todorov, op. cit, pp. 186- 7.

(10)Hales, op. cit, p. 208.

(11) GeOffrey ; op. cit, pp. 194- 5.

(12) Watson, L. S;A short History of Old Russian Literature, (London, N.D), p.161-3.

(13) فاروق: المصدر السابق، ص173؛ David, op. cit, p. 217.

(14)بيبيفانوف: فيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوفيتي، ترجمة: خيري الضامن ونيقولا الطويل، (موسكو، د.ت)، ص115؛ حمدي: مصطفى شعبان، تاريخ روسيا الحديث، (بنغازي، 2004)، ص191؛ شاكر، محمود: موسوعة الحضارات وتاريخ الأمم القديمة، ج2، (الاردن، 2003)، ص564؛ Breet; op. cit, p. 169 ;William, op. cit, p. 125.

(15) Wesley, R. F; Russia in The Sixteenth century, (New York, 1934),pp. 182- 4.; Clarkson, op. cit, p. 194 ; Paul, op. cit, p. 158.

(16)شعار، محمد: روسيا في عهد القيصر ايفان الرابع (الرهيب)، نقلاً عن؛www.shamyat.com.

(17)الزيدي، مفيد: تاريخ اوربا الحديث والمعاصر، (عمان، 2004)، ص68.

(18)شعار: المصدر السابق؛ المالكي، علي جودة صبيح: روسيا القيصرية في عهد كاترين الثانية، رسالة ماجستير – غير منشورة– كلية الدراسات التاريخية، جامعة البصرة، (2010)، ص7.

(19) Watson, op. cit, pp. 189- 90.

(20)البكاء، هند طاهر خلف: العلاقات الايرانية – السوفيتية 1941– 1951، رسالة ماجستير – غير منشورة– كلية التربية – الجامعة المستنصرية،(2004)، ص19؛ شعار: المصدر السابق.

(21)Stone, D.; Amilitary History Of Russia from Ivan the Terrible to the war Chechnya (New York, 1968), pp. 12-3 ; Edward, p. 216.

(22) Kirchner, Wather ; A General History Of Russia, (New York, 1948), pp. 47-8؛ بيبفانوف: المصدر السابق، ص126– 128؛ نجيب: سعد الله احمد، محاضرات في التاريخ الروسي،(دمشق، 1938)، ص131.

(23) غراهام، ستيفن: ايفان الرهيب اول القياصرة، ترجمة يوسف شلب الشام، (دمشق، 1996)، ص119– 138؛ بيبفانوف: المصدر السابق، ص124– 126؛ حسون، علي: الروس والعثمانيون، (بيروت، 1982)، ص58.

(24)موسنييه: رولان، تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف السعد، المجلد الرابع، (بيروت ،1966)، ص177– 178؛ فاروق، المصدر السابق، ص184؛ Todorov, op. cit, p.219.

(25) Kurbsky, A.M ; History Of Ivan IV, Translated by J. L. I ; (combridge university Press, 1965), pp. 9-13.

(26)Ibid, op. cit, p. 16 ; Harbuth , op. cit, p. 128;
فشر، هربرت: اصول التاريخ الاوربي من عصر النهضة حتى الثورة الفرنسية، (القاهرة، د.ت)، ص315.

(27)نصري، طارق اسماعيل: التوسع الروسي في البلطيق نقلاً عن: www.modernhistory.com

(28)المقريحي، ميلاد: تاريخ اوربا الحديث 1453–1848، (بنغازي، 1996)، ص225؛ Wesley, op. cit, p. 256 . ; Clarkson, op. cit, p. 260.

(29) Robert, H. S; A History Of Russia in The Medieval ages, (London, 1908), p. 144.

(30)نقلاً عن البياتي: المصدر السابق.

(31) Eloy; op. cit, p. 144; Todorov, op. cit, p. 236; مراد، مصطفى: ايفان الرهيب قيصر (تفنن) في التنكيل بمعارضيه www.maghress.com

CONFLICT OF INTERESTS

There are no conflicts of interest

المصادر

(1) موسنييه، رولان: تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف السعد، المجلد الرابع، (بيروت، 1966)، ص174؛ زيباري، ايفان: التاريخ والمؤرخون وحقيقة ايفان الرهيب نقلاً عن؛ www.alfiker.com.، مراد، مصطفى: ايفان الرابع نقلاً عن؛ www.maghress.com؛ نافع، ضياء: لماذا سمي بالرهيب؟ نقلاً عن؛ www.almadapaper.net.

(2)Eloy ; Maueen ; The Colonial Empires , (Paris, 1953), p. 81.

(3) فؤاد، محمد: ايفان الرهيب قيصر روسيا، مجلة المعرفة، المجلد الثالث، (بيروت، 1979)، ص384؛ Breet,op.cit,P.147,Harbuth,op.cit,p.122.

(4)البياتي، ميسون: دراسات وأبحاث في التاريخ والتراث واللغات نقلاً عن؛www.alhewar.org

(5) ماداریاغا، ایزابیل: شخصيات لها تاريخ (ايفان الرهيب) نقلاً عن؛www. kenana.fromegypt.net؛ فاروق، وليد سلمان أغا، روسيا العظمى ،(د.م،1919)، ص138.

(6)عبد الغني، احمد جمال، البلاط القيصري الروسي (دسائس ومؤمرات)، (دمشق، 1931)، ص105-109؛ Eloy, op. cit, pp. 99-101 ; www. kabbas. Com.

(7)الحميد، سعد عبدالله : معركة موسكو، نقلاً عن؛ www.alukah.net.

(8) Todorov, op. cit, pp. 186- 7.

(9)Hales, op. cit, p. 208.

(10) GeOffrey ; op. cit, pp. 194- 5.

(11) Watson, L. S;A short History of Old Russian Literature, (London, N.D), p.161-3.

(12)بيبيفانوف: فيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوفيتي، ترجمة: خيري الضامن ونيقولا الطويل، (موسكو، د.ت)، ص115؛ حمدي: مصطفى شعبان، تاريخ روسيا الحديث، (بنغازي، 2004)، ص191؛ شاكر، محمود: موسوعة الحضارات وتاريخ الأمم القديمة، ج2، (الاردن، 2003)، ص564؛ Breet ; op. cit, p. 169 ;William, op. cit, p. 125.

(13) Wesley, R. F ; Russia in The Sixteenth century, (New York, 1934),pp. 182- 4.; Clarkson, op. cit, p. 194 ; Paul, op. cit, p. 158.

(14)شعار، محمد: روسيا في عهد القيصر ايفان الرابع (الرهيب)، نقلاً عن؛www.shamyat.com.

(15)الزيدي، مفيد: تاريخ اوربا الحديث والمعاصر، (عمان، 2004)، ص68.

(16)شعار: المصدر السابق؛ المالكي، علي جودة صبيح: روسيا القيصرية في عهد كاترين الثانية، رسالة ماجستير – غير منشورة– كلية الدراسات التاريخية، جامعة البصرة، (2010)، ص7.

(17) Watson, op. cit, pp. 189- 90.

(18)البكاء، هند طاهر خلف: العلاقات الايرانية – السوفيتية 1941– 1951، رسالة ماجستير – غير منشورة– كلية التربية – الجامعة المستنصرية،(2004)، ص19؛ شعار: المصدر السابق.

(19)Stone, D.; Amilitary History Of Russia from Ivan the Terrible to the war Chechnya (New York, 1968), pp. 12-3 ; Edward, p. 216.

(20) نجيب: سعد الله احمد، محاضرات في التاريخ الروسي،(دمشق، 1938)، ص131.

(21) غراهام، ستيفن: ايفان الرهيب اول القياصرة، ترجمة يوسف شلب الشام، (دمشق، 1996)، ص119-138؛ بيبيفانوف: المصدر السابق، ص124– 126؛ حسون، علي: الروس والعثمانيون، (بيروت، 1982)، ص58.

(22)موسنييه: رولان ، تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف السعد، المجلد الرابع، (بيروت ،1966)، ص177– 178 ؛ فاروق، المصدر السابق، ص184؛ Todorov, op. cit, p.219.

(23) Kurbsky, A.M ; History Of Ivan IV, Translated by J. L. I ; (combridge university Press, 1965), pp. 9-13.

(24)Ibid, op. cit, p. 16 ; Harbuth , op. cit, p. 128;

فشر، هربرت: اصول التاريخ الاوربي من عصر النهضة حتى الثورة الفرنسية، (القاهرة، د.ت)، ص315.

(27)نصري، طارق اسماعيل: التوسع الروسي في البلطيق نقلاً عن: www.modernhistory.com

(25)المقريحي، ميلاد: تاريخ اوربا الحديث 1453–1848، (بنغازي، 1996)، ص225؛ Wesley, op. cit, p. 256 . ; Clarkson, op. cit, p. 260.

(26) Robert, H. S; A History Of Russia in The Medieval ages, (London, 1908), p. 144.

(31) Eloy ; op. cit, p. 144 ; Todorov, op. cit, p. 236 ; مراد، مصطفى: ايفان الرهيب قيصر (تفنن) في التنكيل بمعارضيه www.maghress.com